مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد العاشر
1993م.

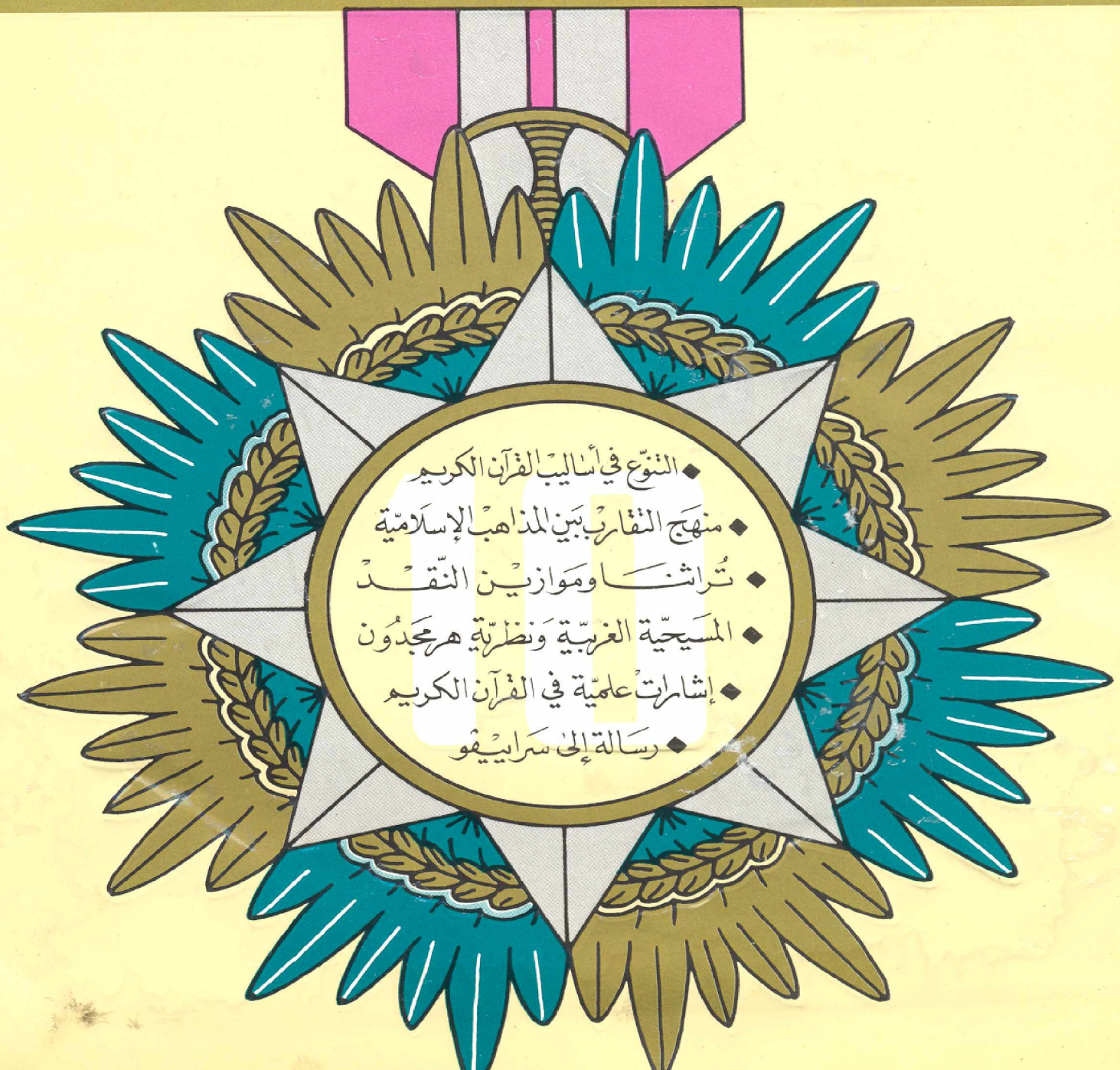

- التنوع في أساليب القرآن الكريم
- منهج التقارب بين المذاهب الإسلامية
- تراثنا وموازين النقد
- المسيحية الغربية ونظرية هرمجدون
- إشارات علمية في القرآن الكريم
- رسالة إلى سراييفو

الإقرار بالوحدانية توفيق
منزلته وآثاره

الدكتور مسعود الوازني
كلية الدعوة الإسلامية - الجماهيرية العظمى

إن المتأمل في دعوات الأنبياء جميعاً عليهم السلام يجدها تتجه أولاً إلى دعوة الناس إلى الإقرار بوحدانية الله، والاعتراف بوجوده والتسليم المطلق بألوهيته، والتركيز على تحرير العقل مما علق به من أدران الوثنية وأوهام الشرك. وهي وإن كانت تبدو لنا يسيرة في طرحها ولكنها ليست دعوة محدودة الأثر أو أنها رؤية ذهنية مجردة جافة معزولة عن الحياة تقر بوجود إله يشغل حيزاً محدوداً لا يبعث على شعور التعارض مع الواقع القائم على التقليد الأعمى لعقائد الأقدمين والجمود الفكري عند آرائهم من غير مراجعة أو نظر. وإنما كان توحيداً يمتد نفوذه خارج دائرة الذهن ليصل تأثيره إلى جميع جوانب الحياة المختلفة، ويتحكم في سير أنشطتها، ويستهدف إرساء أسس جديدة للعمل والحياة مختلف كلياً أو جزئياً عما ألفه الناس من تقاليد وعادات، وينزع بالسلوك عامة إلى السمو والقصد من خلال التعلق بصفات الله التي تمثل الكمال المطلق في شتى صوره وأبعاده، ويغير

نظرة العقل للكـون والحياة تغييـره في المحتوى النفسي كله، ويـرتقي بالميـول والرغبات رقيه بالعلاقات الاجتماعية في أبعادها المختلفة حتى إنه ليمكن القول إن ارتباط التوحيد بأبعاد الحياة يشبه إلى حد بعيد اتصال حلقات السلسة الواحدة التي يشد بعضها بعضاً، وإن أيَّ فصل بين الفكر والسلوك هو فصل بين متشابك، أو تجزئة لمتكامل، إذ لا يمكن أن يحيا الإنسان بذهن إلٰهي وسلوك حيواني ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب**﴾[1] فضلاً عن أن التوحيد يصعب أن يكون عقيدة راسخة ويقيناً ثابتاً ما لم يُهيأ له جو روحي يتعارض مع ما كان يجري في بيئات الكفر من لهو وفساد، وإن كل أولئك الذين عارضـوا دعوات الأنبيـاء وناصبوهم العداء كانوا يدركون أن الأمر لا يعني استبدال معتقد بآخر، وإنما كان يتجه التوحيد رأساً إلى القضاء على كل ما يندرج تحت الكفر من أساليب وأنماط، وما كان يمارس من ظلم ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق**﴾[2] وإن أيسر تلك الجوانب التي أدرك المخاطبون بالوحي أبعادها سواء من أسلم منهم أو من أعرض عن الإسلام تتمثل في النزول عن تلك المكانة التي كان يحيط بها السادة المترفون أنفسهم أو يحيطهم بها غيرهم، والأخذ بمبدأ المساواة وإقراره بين الناس جميعاً، والقضاء على تلك العصبيـات القبلية ودعوى التفاضل العرقي أو الطبقي «كلكم لآدم وآدم من تراب» ليس لأحد بسبب طبيعته البشرية منزلة متميزة أو مكانة خاصة يسمو بها على الآخرين، وإنما هو نسيج وهمي سَداهُ ولُحمتُه عصور التخلف والانحطاط، وإن ادعاء مجموعة ما نفسهـا محبوبة لله أو مختارة لديه بسبب انتمائها إلى نسل معين، أو شخص معين يُعَـدُّ ادّعاءً باطلاً وفكرة لا علاقة لها بالتصور الديني الصحيح. فالشعب المختار حقاً لدى الله هو ذلك الذي يتبع وحيه وأحكامه بصرف النظر عن انتماءاته القبلية أو

---

(1) سورة البقرة، آية: 85.

(2) سورة الحج، آية: 30 - 31.

الاجتماعية أو الجغرافية[3]. ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[4] وإن الإذعان المجرد لله يعد تعبيراً آخر عن الخروج من ذل الخضوع لغيره سبحانه والسمو بالنفس عن أي تعلق آخر ﴿**يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً، فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً**﴾[5].

ولا يعني هذا أن الدعوة إلى الإقرار بالتوحيد لا تستدعي معها طرح المسائل التي تنير الطريق أمام المقرين، أو أن كل القوانين والتشريعات التي تحكم مسيرة الحياة ومناهج التفكير يمكن أن تتضح كاملة من خلال التوحيد ذاته. لا شك في أن هنالك أموراً يدرك العقل منذ تسليمه المطلق انسجام بعضها مع التوحيد وتعارض بعضها الآخر معه، وهنالك أمور تشريعية لا غنى عن طرحها وبيانها، غير أنه ينبغي أن ندرك أن جميع تلك التشريعات قد كان للتوحيد دخل في تهيئة العقول لها، وفتح المدارك لقبولها والاستشراف إليها، فضلاً عما له من دور في تكوين الرؤية القلبية التي تفسح للإنسان مجال الترقي في مدارج السمو والكمال، وتمنحه إمكانية فهم السنن الكونية وطرق الاستفادة منها. وإن المتتبع لحركات الزهد يجدها تنطلق أساساً من عمق اليقين بالله والتعلق بصفاته، التي أسهمت في مضاعفة التطبيق الصارم لمسائل الشريعة في حياة الزهاد.

وقد أدرك الصحابة منذ البداية منزلة التوحيد وأبعاده في النفس والحياة، فأقبلوا على العمل الصالح بقلوب مذعنة، وعقول متطلعة إلى معرفة المزيد مما قد يكون خفي عنهم من الأعمال التي تقربهم من الله، وكانوا يلحون في السؤال إلى أن نزل قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم**﴾[6] ومضى الصحابة رضي الله عنهم

---

(3) وحيد الدين خان الدين في مواجهة العلم ط 1972 م المختار الإسلامي القاهرة.

(4) سورة الحجرات، آية: 13.

(5) سورة النساء، آية: (174 - 175).

وهم أشد ما يكونون حرصاً على تطبيق دعوة التوحيد اعتقاداً أو سلوكاً، ولم يرو لنا التاريخ أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ «لِمَ أمر الله بكذا ولِمَ نهى عن كذا؟ . . . لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام وأن قدم الإسلام لا يثبت إلا على درجة التسليم، وأن أول مراتب تعظيم الأمر التصديق به ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر من القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ثم فعله لكونه مأموراً بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته، فإن ظهرت له فعله وإلا عطله. فإن هذا ينافي الانقياد ويقدح في الامتثال»[7].

وهذا الفهم الذي انطلق منه الصحابة رضي الله عنهم هو الذي يعيننا على فهم أحاديث الإقرار بالتوحيد «من قبل مني الكلمة التي عرضت على عمي فهي له نجاة»[8] وكذلك ما بشر به النبي ﷺ الوفد الذي قدم عليه مقراً «أبشروا وبشروا من وراءكم أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً بها قلبه دخل الجنة»[9]، وقوله ﷺ «لن يوافي عبد يوم القيامة يقول لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله إلا ما حرم عليه النار»[10] ثم ساد في المرحلة اللاحقة على يد الجهمية فهم آخر لتلك الأحاديث جعلهم يعلقون النجاة بالإقرار المجرّد، وهذا الفهم القاصر يرده التوحيد نفسه الذي يسموا بدوافع المؤمن عن كل ما يضاد الفطرة السليمة ويتعارض مع تزكية النفس من ناحية، وإلى ما يسهم به من انشراح الصدر لاستقبال أمر الله في المسائل التي تحتاج إلى عرض وبيان من ناحية أخرى.

وإذا كانت هذه الأحاديث تعلق النجاة بالإقرار دون أن تتطرق إلى إثارة بقية عناصر الإيمان من ملائكة وكتب ورسل واليوم الآخر، ولم تشترط للنجاة العمل

---

(6) سورة المائدة، آية: 101.

(7) ابن أبي العز، شرح الطحاوي في العقيدة السلفية. نشر زكريا علي يوسف مطبعة الامتياز د. ت القاهرة ص 178.

(8) الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ط 1982/3 منشورات دار الكتاب العربي.

(9) الهيثمي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 61/1.

(10) البخاري، صحيح البخاري كتاب الرقائق باب العمل يبتغي به وجه الله.

الصالح، فإن هنالك قسماً آخر من النصوص من القرآن والحديث قرنت الفوز في الآخرة بالعمل الصالح ومنها قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾[11] وجعلت العمل الصالح مكفراً للخطايا ﴿**ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾[12] وأقسم الله سبحانه على أهمية العمل فقال: ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾، ولم تكن الأحاديث هي وحدها التي قصرت كما يبدو للبعض، الإيمان على الإقرار المجرَّد بكلمة التوحيد، وإنما هنالك آيات من القرآن الكريم قد ركزت هي الأخرى على مطلق الإيمان بالله مع الاستقامة، منها قوله تعالى ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾[13] وهي كما نرى لم تعرض لبقية عناصر الإيمان من ملائكة وكتب ورسل واليوم الآخر وما فيه من جزاء.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في هذه الآية الكريمة التي نصت على الإيمان بالله والرسول بصفة خاصة، دون أن تعرض لبقية شُعب الإيمان أو التكاليف، ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه**﴾[14].

وتبعاً لذلك فإن ما ذهبت إليه المرجئة الجهمية لا يستقيم مع التوحيد الذي طرح الأنبياء عليهم السلام من خلاله رسائلهم في تطهير الفكر والسلوك «ولم يفرضوا التشريع إلا بعد أن تهيأت النفوس وأصبح قناعة مختمرة وحاجة ملحة تريد حكم الله[15]، فضلاً عن أن الحديث الشريف قد صحب القرآن فترة نزوله التي تواصلت قريباً من ثلاثة وعشرين عاماً، ولا يبعد أن تكون تلك الأحاديث قد ركزت كما ركز

---

(11) سورة النساء، آية: 57.

(12) سورة التغابن، آية: 9.

(13) سورة فصلت، آية: 30.

(14) سورة النور، آية: 62.

(15) راجح الكردي شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي. ط 1985 م دار الفرقان عمان ص 19.

القرآن الكريم في مرحلته الأولى على غرس شجرة التوحيد في النفوس، لما لها من أثر في تصحيح العقيدة التي يتحدد على أساسها التصور الشمولي للكون والحياة، ثم جاءت أحاديث بعدها أتمت الجزء الباقي، وهو ما يتفق مع منهج القرآن نفسه الذي نراه يتناول في موضع عنصراً معيناً من عناصر الإيمان، أو عملاً من الأعمال، ثم يضيف إليه في موضع آخر تكاليف أخرى إذ لا يمكن أن تتزاحم العقائد والتكاليف في آية واحدة، لما يترتب على ذلك من تفويت الغرض من أسباب النزول، وحكمة التدرج في التشريع التي تقضي بأن يخص الله سبحانه وتعالى عملاً من الأعمال الصالحة بالتأكيد في موضع، ولا يخصه بشيء في موضع آخر. فهو مثلاً يؤكد على القيام بأداء الصلاة والزكاة في آية، ثم يدعهما ويعرض لجوانب أخرى كالصدق والإخلاص وحسن المعاملة في ثانية، ويدعو إلى العفاف وحفظ الفروج في ثالثة، ويناشد صلة الرحم وحقوق ذوي القربى في رابعة، ويتوجه إلى مواساة المساكين واليتامى في خامسة، أو يتناول أهمية البر بالوالدين في سادسة، ويعرض للقوانين الزوجية في سابعة، ويشدد على أكل الحلال وترك الحرام في ثامنة[16] وهكذا. ولا يعني ذلك سوى التدرج في تقرير المسائل ومراعاة مقتضيات الأحوال ومتطلبات المناسبة. فكان كلما عرض للناس حادث، وبدت له أذهانهم متفتحة وقلوبهم مستعدة للأخذ به نزل ذلك التوجه وركز عليه. واستمر الأمر على ذلك حتى تكاملت العقائد والنظم السلوكية والتشريعات العملية، وفق أسلوب حكيم ومنهج رباني وضع كل شيء في إطاره الصحيح، وانظر فيما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال له رسول الله ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه على النار. قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا. قال: إذن يتكلوا»[17] أي لا يدركون البعد العملي للتوحيد فيقعون في الظن بأن النجاة تتحقق بالإقرار المجرَّد، فالإيمان كل لا يتجزأ ووحدة متكاملة متفاعلة، والمؤمن مطالب بالعمل بما جاء في الدين كله،

---

(16) أبو الأعلى المودودي. مفاهيم إسلامية ط 1402/4 هـ دار القلم الكويت ص 11.

(17) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم، وتمام الحديث وأخبر به معاذ عند موته تأثماً.

وليس لأحد أن يقتصر على جانب ويترك الجوانب الأخرى، بحجة أنه وجد آية معينة أو حديثاً خاصاً يعلق النجاة بذلك، ويدع الإذعان لما نزل من الحق كله، ظناً منه بأن ما هو عليه يرفعه إلى مصاف المؤمنين، كما يحدث لمن يقيمون بعض العبادات ويتركون بعضها الآخر أو لمن يؤدون العبادات ولا يلتفتون بعدها إلى ما يرتكبونه من غش وخيانة وكذب ونميمة، وأكل أموال الناس بالباطل ونكث العهود، والوشاية بالناس والوقيعة بالأبرياء، أو بموالاة من يكيدون للمسلمين.

ونعود مرة أخرى لنقرر أنه ليس بين أيدي الباحثين، ما يؤكد أن تلك الأحاديث جاءت بعد إقرار جملة من التكاليف، وهو ما يجعل النظر إليها في ضوء التدرج في التشريع أولى. وحتى إذا جاءت بعد اكتمال الرسالة، فإن ما تؤكد عليه تلك الأحاديث من الإخلاص الكامل لكلمة التوحيد يجعلنا نجزم بأن التوحيد يمثل قمة الإذعان النفسي لدين الإسلام والتصديق الجازم بكمال عقيدته، والتقيد بحدوده وآدابه، والتسليم المطلق بأحكامه، وبذل الجهد في الإتيان بأوامره واجتناب نواهيه، وتجسيد ما في القلب من يقين تجسيداً كاملاً وترجمة ما في الذهن من أفكار في واقع التعامل مع الآخرين، ولا يغير من مدلول التوحيد وأبعاده في بناء مناهج التفكير عموماً، وتكوينه للرؤى الكونية العرفانية ما يصدر عن البعض من تفسيرات محدودة لا تستبطن ما في هذه الحقيقة من أبعاد. ولا يساورني الشك في أن ما نقل عن المرجئة الجهمية لا يعدو أن يكون دفاعاً مجرداً عن وجهة نظر في مسألة مرتكب الكبيرة التي طرحت في عصرهم، وحاولوا أن يلتزموا الحياد بتبرئة من شاركوا في أحداث الفتنة جميعاً من غير تدخل في اتهام فريق بعينه، وبخاصة أنه لم ينقل لنا أحد من خصوم الجهمية أنهم كانوا يتهاونون في أداء الفرائض أو يتسامحون في ارتكاب المعاصي، برفع الحدود أو بتأويل آيات الوعيد من نحو قوله تعالى ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد**﴾[18].

تلك هي بعض حقائق التوحيد الذي نراه يمثل مركز إشعاع يغمر نوره جميع

(18) سورة آل عمران، آية: 30.

جوانب الحياة، ويمنح منهجاً في التأمل والنظر يخرجُ بموجبه الإنسان من دائرة التقليد العقائدي الأعمى والجمود عند آراء الأقدمين، ويتحرر من ضغوط المادة وانحراف الدوافع، ويتعلق قلبه بالحق ولا يتخذ أعداء الإنسانية من الكافرين أولياء من دون المؤمنين ولا ترهبه قوتهم، فالقوة لله جميعاً ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب**﴾[19].

(19) سورة البقرة، آية: 165.